

النظم القرآني

تركيب الآية والجملة في القرآن الكريم

يعني الباحثون في الدراسات اللغوية في العصر الحديث بطرائق تركيب الكلام في كل لغة ، وتطور هذه الطرائق خلال عصورها المتعاقبة ، فيدرسون أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة ، وربط الجمل بعضها ببعض ، والصلة بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والفاهيم ، وارتباط هذه الفاهيم في أذهان أهل اللغة ، وهو ما يطلق عليه علماء فقه اللغة الفرنسيون لفظ Syntaxe ، ويقابلها في العربية نظم الكلام . وقد استعملها أسلافنا في مثل هذا النوع للنثر كما استعملوها للشعر . وهذه الباحث موزعة في العربية بين علم النحو والمعاني ؛ فبحث تقديم الخبر على البتداء وبحث الجمل الشرطية والوصولية (صلة الموصول) ومواطن استعمال صيغة المضارع للماضي والماضي للمستقبل من أبحاث النحو تدخل في هذا الباب ، وبحث التقديم والتأخير في علم المعاني والإطناب والإيجاز وأساليبها والقصر وضروب استعمال الاستفهام لأغراض متنوعة ، ومواطن الحذف والذكر وغير هذه من الأبحاث تدخل كذلك في باب نظم الكلام . وقد عني النقاد وأهل الفن في هذا العصر كذلك بنظم الكلام وأساليب تركيبه ، وكان هدفهم من هذه العناية تلمس الجمال الأدبي في تلك الأساليب وفحصوا عن التراكيب التي تحقق لهم حلاوة النغمة وجمال الجرس أو المقابلة بين أصوات الحروف والمدود في تأليفها ، والموضوع الذي تدل عليه وتعبّر عنه بحيث يُقابل الجرس القوي والنغمة الشديدة شدة الصورة

أو الفكرة ، والنعمة الناعمة المنسابة والجرس الهادي ، الشهد الحلو الجميل ، والصورة المحيية ، والفكرة العذبة ، والتأمل الهادي العميق .
ولا يزال مجال البحث في نظم الكلام وتركيبه في اللغة العربية نظرياً ، واعتباره في النصوص الأدبية خلال العصور رجباً واسعاً لقلّة من مالوا إليه وانصرفوا إلى العناية به . وقد جذبني هذا الاعتبار في أثناء دراستي وتدريسي للتفسير الأدبي لكتاب الله العظيم ، وكنت ألاحظها وأقف عندها في قراءتي وتأملي لآياته . وقد ضمنت كتابي (من منهل الأدب الخالد . دراسة أدبية لنصوص من القرآن) بعض هذه الملاحظات في معرض شرح بعض السور والآيات التي شرحتها فيه ، وقد رأيت من المفيد جداً سواء في الدراسات اللغوية أم في الدراسات القرآنية ، أفراد هذا الموضوع بالبحث والانطلاق بعد ذلك للتوسع فيه توسع تعمق بالنسبة إلى القرآن الكريم ، وتوسع امتداد إلى نصوص العربية في مختلف عصورها بعد ذلك . وليسمع لي القاري أن ألقى بين يديه بداية مختصرة ونماذج يقاس عليها ويضاف إليها .

١ - الجملة والذات :

الجملة هي الوحدة الأساسية للكلام عند النحاة . أما الآية فهي الوحدة التي يتألف منها النظم القرآني ولذلك فهي شيء آخر يختلف عن الجملة لأنها ليست وحدة معنوية أو نحوية وإنما هي الوحدة الفنية أو اللبنة التي يتألف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانية الإلهية التي هي القرآن .
ولهذا فقد تكون الآية جملة تامة وقد تكون جزءاً من جملة أي إن الجملة تتألف من عدة آيات وقد تشتمل الآية الواحدة على جمل متعددة .
الأصل أن الآية وحدة ترتيبية أي أن القاري يقف عند فواصلها إلا في حالات قليلة محدودة لا يجوز فيها الوقف لإخلاله بالمعنى كقوله تعالى : فويل

للمصلين -- الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أو لأن الوصل أحسن وأفضل ، ويعقب القارىء في آخر الآية ولو كان الكلام متصلاً والمعنى متسلسلاً إذا لم ينشأ عن هذا الوقف تغيير في المعنى ، وهكذا تكون الآيات فقرات من الكلام يرتلها القارىء ويستريح بعدها قليلاً ، ثم يتابع التلاوة ويتصل المعنى في ذهنه وفي ذهن السامع .

(أ) فمن أمثلة الجملة التي تتألف من آيات التماذج التالية :

« فأما من أعطى واتق • وصدق بالحسنى • فسنيسره لليسرى ، ثلاث آيات في جملة واحدة .

« وأما من بخل واستغنى • وكذب بالحسنى • فسنيسره للعسرى ، ثلاث آيات في جملة واحدة .

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون • والذين هم بآيات ربهم يؤمنون • والذين هم برهم لا يشركون • والذين يؤتوا ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون • أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ، (المؤمنون ٥٧) وهي تتألف كما ترى من خمس آيات والمبتدأ في الآية الأولى والخبر في الخامسة .

فالآية هنا جزء من جملة ولا يتم المعنى إلا في عدة آيات ، وإن كان القارىء يقف في آخر كل آية وقفة استراحة أو وقفة ترتيل لا وقفة انتهاء المعنى . (ب) وقد تكون الآية جملة تامة مستقلة كقوله تعالى : وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تنن تستكبر ولربك فاصبر .

وكقوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، وإن كانت هذه الجمل أو الآيات تتتابع وتتعاطف . (ح) وقد تتألف الآية الواحدة من عدة جمل متعاطفة أو متداخلة بحيث تؤلف تركيباً بنائياً لا تقبل أجزاءه الانفكاك ، وستأتي نماذج من هذا النوع في خلال الكلام على الآيات الطويلة ، ومن هذا النوع قوله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، إن الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) .
وقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) وبعض الآيات طويلة جداً وقد تجاوزت عشرين جملة في آية الدين في آخر سورة البقرة عدا الجمل الفرعية التي تضمنتها .

طبيعة الآية ومغصاتها :

وبما تقدم يتبين أن تقسيم الكلام القرآني إلى آيات هو غير تقسيم الكلام إلى جمل ، فالآية هي جزء من الكلام يستقل من حيث الترتيل لا من حيث المعنى فهي وحدة ترتيلية فنية . وهي تقابل الشطر أو البيت في الشعر ، مع أن القرآن ليس بشعر ، ولا يقابلها أي شيء في النثر . ولا علاقة لها بالسجع والكلام المسجوع كما سيتبين معنا في الكلام عن تنمة الكلام في القرآن وجمال الترتيل والموسيقى . ويجدر بنا لنعرف تنوع موسيقى القرآن ونغمته بتنوع الأفكار والمعاني أن ندرس تركيب الآية وأنواعها من حيث التركيب .

تركيب الآيات :

قد تكون الآية كلمة واحدة وأكثر ما تكون كذلك في أوائل بعض السور للإثارة ولفت النظر والباغته ، وذلك مثل قوله (الحاقة) و (القارعة) (والطور) . وقد تتألف من كلمتين كآيات الثلاث من سورة الطور هذه (وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور) وكذلك هذه السورة الأخرى التي تبتدئ بكلمة واحدة ثم تتابع السورة كلمتين كلمتين ثم ثلاث كلمات ثم أربعاً ثم خمساً وهي سورة الرحمن :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والماء رقياً ووضع الميزان . ألا تطفوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

وتركيب الآية القرآنية مرتبط بتركيب الجمل ولذلك كان من الضروري دراسة الجملة القرآنية وأنواعها من حيث التركيب والتأليف وهو ما سنفعله في بحثنا هذا :

في القرآن الكريم أنواع كثيرة من التراكيب تتدرج من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصرها إلى الجملة المركبة الطويلة المؤلفة من عناصر متعددة بينها ترابط وتشابك ، ونقدم نماذج من هذه الأنواع فيما يلي :

١ - الجملة البسيطة الفصيحة :

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة النجم : « وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الآخرة . وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب السمى . وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى » . وكذلك قوله تعالى في سورة الشعراء :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نبذ أنصاماً فنظّل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفمونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فأنهم عدواً لي إلا رب العالمين . الذي خلقي فهو يهدين . والذي هو يطعني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ... » .

فالتأمل لهذه الآيات يجد أنها مؤلفة من جمل قصيرة مقتصرة على عناصرها الأساسية من الفعل والفاعل والمفعول به أو المجرور من غير تعدد هذه العناصر ، مع مراعاة التماسق وجمال النغمة .

٢ - الجملة البسيطة الطويلة :

ويتألف هذا النوع من الجمل من جمل قصيرة بسيطة متصلة مرتبط بعضها ببعض بالعطف أو غيره ، كأن تصل بينها لام التعليل ، أو تكون الثانية نعتاً للسابقة أو لجزء منها وهذه نماذج من هذا النوع :

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه / إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله / إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه / ما نراك إلا بشراً مثلاً / وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي / وما نرى لكم علينا من فضل / بل نظنكم كاذبين . » (سورة هود) هذه آيات ثلاث كل آية منها تتألف من عدة جمل قصيرة بسيطة يتصل بعضها ببعض فيتألف منها جملة طويلة ، ولكنها بسيطة التركيب غير متداخلة العناصر ، ومثلها قوله تعالى في السورة نفسها :

« ويصنع الفلك / وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه / قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون . »

وفي سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه / وفي آذاننا وقر / ومن بيننا وبينك حجاب / فاعمل إنا عاملون . »

ومثلها قوله تعالى في سورة النحل « وهو الذي سخر البحر / اتناكلوا منه لحماً طرياً / وتستخرجوا منه حلية تلبسونها / وترى الفلك مواخر فيه / ولتبتغوا من فضله / ولعلمكم تشكرون . »

وهذا النوع من الآيات التي تتألف كل آية منها من جملة طويلة ولكنها ذات فقرات قصيرة ، أو بتعبير آخر ينشأ طولها من اتصال جمل قصيرة بسيطة ، إن هذا النوع كثير في القرآن وله نعمته الخاصة وطابعه الخاص ، وهذه أيضاً نماذج من هذا النوع نفسه :

« أبود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب / تجري من تحتها الأنهار / له فيه من كل الثمرات / وأصابه الكبر / وله ذرية ضعفاء / فأصابها إعصار / فيه نار / فاحترقت / كذلك يبين الله لكم الآيات / لعلكم تفكرون . » البقرة ٢٦٦ .

« الله نور السماوات والأرض / مثل نوره كمشكاة فيها مصباح / المصباح في زجاجة / الزجاج كأنها كوكب دري / يوقد من شجرة مباركة / زيتونة لا شرقية ولا غربية / يكاد زيتها يضيء / ولو لم تمسسه نار / نور على نور / يهدي الله لنوره من يشاء / ويضرب الله الأمثال للناس / والله بكل شيء عليم .

٣ — الجملة الطويلة المسلسلة :

بعض الآيات القرآنية تتألف من جمل مترابطة مسلسلة تتصل أجزاؤها وجمليها الصغيرة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، فلا يمكنك أن تقطعها إلى جمل منفصلة مستقلة ، والترابط بينها أشد من مجرد العطف ، وليس هو مجرد التصاق وتماق ، وذلك كآية الدين في آخر سورة البقرة وهي قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه

بالمثل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء (سورة البقرة)

وتستمر الآية هكذا متسلسلة متصلة حتى تبلغ صفحة كاملة ، أو خمسة عشر سطرا ، ويلاحظ فيها اتصال المعاني من غير تشابك أو تداخل بين عناصر الجمل ، ومثلها قوله تعالى في سورة الحج : **وَيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِّنْ لُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مِّضْءٍ مَّخْلُوقَةٍ وَغَيْرِ مَخْلُوقَةٍ لِّنَبِّئَ لَكُمْ ، وَتَقَرُّ فِي الْآرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ ، وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَزْكَىٰ أَعْيُنِ الْعَمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا . وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ .**

فهذه آية واحدة وفكرة واحدة متسلسلة المعاني وتنتهي بشاهد أو مثل ، وكذلك تركيبها ونظم الكلام فيها فهو يشتمل على النداء والشرط والتعليل والمطف .

٤ — الجملة الطويلة المركبة :

وهي تختلف عن النوع السابق بأنه لا يمكن تقسيمها إلى فقر منفصلة لأنها متشابكة العناصر لا ينفصل أولها عن آخرها ، ولا يفهم معناها إلا إذا قرئت كلها جملة واحدة فقد يكون المبتدأ في أولها والخبر في آخرها أو العكس مع تعدد العناصر المعطوف بعضها على بعض كقوله تعالى :

وَإِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاختلاف الليل والنهار ، والنَّارِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . سورة البقرة .

فقد جاء الخبر المقدم في أول الآية والابتداء في آخرها ، وبينها كلام طويل تضمن عناصر متعددة : خلق السموات والأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الفلك التي تجري في البحر ...

وهذه العناصر نفسها يتألف كل منها من مضاف ومضاف إليه ، والمضاف إليه نفسه متعدد أيضاً أو يتألف من اسم موصول مع جملة هي ملته تعطف عليها جمل أخرى .

ومن هذا النوع جمل أو آيات تتألف من شرط وجوابه وتعتمد فيها العناصر كذلك كقوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم و أبنائكم و إخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها و تجارة نخشون كسادها ، و مساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله و جهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة) فهذه الآية تتألف من جملة طويلة مذيلة بجملة كما يلي :

١ - جملة قل مع مقول القول المذيلة في آخرها بجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين .

٢ - مقول القول يتألف من جملة شرطية .

٣ - الجملة الشرطية يتألف فيها الشرط من جملة كان واسمها وخبرها .

٤ - اسم كان (المسند إليه) يتألف من ثمانية عناصر أو أسماء معطوف بعضها على بعض ، خمسة منها مفردة وثلاثة موصوفة بجمل .

٥ - خبر كان اسم تفضيل متبوع بثلاثة أسماء : أحب إليكم من ...

٦ - جواب الشرط (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) يتألف من جملتين

٧ - وأخيراً جملة تذييلية منفصلة مناسبة لفكرة الجملة المذيلة .

م (١٠)

ومن نماذج هذا النوع من الآيات ما اشتمل على اعتراض أو جملة اعتراضية قد يقصر كقوله تعالى :

« وإذا بدلنا آية مكان آية - والله أعلم بما ينزل - قالوا إنما أنت مفتري بل أكثرهم لا يعلمون . »

وقد يطول كثيراً حتى لا يكاد القارىء يفهم جملة المعنى إلا بعد التأمل التمهّل وقد يكون ذلك في عدة آيات تتألف منها جملة واحدة وفكرة واحدة ، تتخللها جملة اعتراضية تطول أيضاً ، وإليك هذا النموذج النادر في قوله تعالى والكلام عن بني إسرائيل :

فما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً • وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً • وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله - وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً • بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً • وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمثنّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً - • فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدم عن سبيل الله كثيراً • وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً • (النساء ١٥٦)

وأصل الكلام : حرمنا على الذين هادوا (اليهود) طيبات أحلت لهم بسبب نقضهم الميثاق وكفرهم ... وقتلهم الأنبياء ... وقولهم ... وكفرهم وقولهم على مريم ... وقولهم إنا قتلنا المسيح - وهنا يأتي كلا معترض طويل في ثلاث آيات وبظلمهم وصدم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس ، .. وسنعود إلى الكلام عن هذا النوع الفريد الذي يلفت نظر الباحث اللغوي ويسترعي اهتمامه ويثير تطلعه .

ويتصل بموضوع أنواع الجمل وطرائق تركيب الكلام الذي تتألف منه الآيات القرآنية موضوع الترتيب ، أي ترتيب عناصر الكلام وأجزاء الجملة تقديمًا وتأخيرًا ، وموضوع طريقة صوغ الكلام وتركيبه في القرآن الكريم ، وسنتناول هذين الموضوعين بإيراد بعض الملاحظات بإيجاز .

الترتيب :

لقد بحث علماء البلاغة في علم المعاني موضوع التقديم والتأخير والأسباب الدافعة إلى ذلك سواء أكانت معنوية ، أي لاعتبارات تعود إلى المعنى كالتشويق أو العناية والإشادة ، أو القصر والحصر ، أم فنية تعود إلى جمال الصياغة وحسن الجرس وحلاوة النغم ، وإليك نماذج من الآيات التي حصل فيها تقديم وتأخير يخالف الترتيب التحوي المهود ، ولاحظ ما يكسب ذلك الكلام من ناحية المعنى أو من ناحية جمال اللفظ :

« قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، والأصل أن نقول : قل أيها الجاهلون أنأمروني أن أعبد غير الله .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وقد تأخر الفاعل في الجملة إلى آخرها .

« ثم في سلسلة ذرعا سبعمون ذراعاً فاسلكوه ، وقد أخر الفعل إلى آخر الجملة ، وكثيراً ما يكسب الترتيب الكلام حلاوة في النغم بالإضافة إلى ما يفيد من معان أخرى ، كالاهتمام أو المفاجأة أو التشويق ، ونظهر ذلك واضحاً في الآيات التالية :

« واقترب الوعد الحق فإذا هي شاحصة أبصار الذين كفروا ، وهو اوقع وأقوى تأثيراً في نفس السامع من قولنا فإذا أبصار الذين كفروا شاحصة ، وكذلك قوله تعالى :

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » بدلاً من ناظرة إلى ربها .
 وقوله : « خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه » بدلاً من ثم صلوه الجحيم .
 وقوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

الصياغة والتركيب :

إن المعنى الواحد يمكن أن يؤدي في اللغات الراقية في صيغ متعددة ويمكن أن يؤلف الكلام في صور شتى تختلف في تراكيبها وأساليب تأليفها وكثيراً ما يعدل عن الطريق المألوفة في التركيب المعتاد والتأليف المعهود لأهداف فنية ومقاصد بلاغية ، وهذه نماذج من آيات الكتاب الكريم يلاحظ فيها جمال التركيب غير المألوف : « وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . والتركيب النحوي العادي يقتضي أن تقول : وإذ رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت فجاء في الآية (القواعد من البيت) بدلاً من قواعد البيت وفرق بين إبراهيم وإسماعيل لينتهي الكلام بلفظ إسماعيل ، وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة .

وكذلك قوله تعالى « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فصيغ الجزء الأول من الكلام (الخوف) صياغة اسمية ، والجزء الثاني (الحزن) صياغة فعلية ، ولو صيغ كلاهما صياغة اسمية (لا حزن عليهم ولا خوف) أو صياغة فعلية (لا يخافون ولا يحزنون) لما كان للكلام هذا الوقع الجميل .

واستمع إلى قوله تعالى :

« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » .
 وقوله « كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى » وكانوا لا يستطيعون سماعاً .
 فكلا الآيتين تفيد في السمع والإبصار عنهم ولكن المعنى صيغ في صياغة أجمل وأوقع من قولنا (لا يسمعون ولا يبصرون) مع تنوع الصياغة في

الآيتين . ومن التراكيب التي تلفت النظر في القرآن الكريم تكرار أول الآية حينما يطول الكلام ، كقوله تعالى « إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

ولو أنك قرأت الآية من غير هذا التكرار للفظ (رأيتهم) لشعرت بالفرق الكبير بين جمال نعمة الآية وقوة تمييزها عن المعنى وضمف الجملة بعد الحذف .

ومثلها قوله تعالى :

« إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لنفور رحيم » وقوله « ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمغازة من العذاب » .
وقد عني علماء البلاغة في علم المعاني بالبحث عن كثير من طرائق تأليف الكلام وتركيبه فيجشوا في أساليب الإطناب وهو تفصيل الكلام ، وأساليب الإيجاز ، وفي التقديم والتأخير ، ولكتنا نرى أن المجال لا يزال واسعاً أمام من يريد البحث في أساليب النظم القرآني بحثاً مستقلاً .

فوائد البحث في أنواع الجمل وأساليب التركيب في الآيات القرآنية :

إن ما قدمناه من الكلام في تصنيف الآيات والجلل القرآنية وما يتبع ذلك من البحث في الترتيب والتركيب له فوائد عديدة . (فمنها) فائدة تعليمية وذلك أنه يمكن أن يتدرج المتعلم للغة العربية والقرآن نفسه من الجمل القصيرة البسيطة ثم يرتقي إلى الآيات المؤلفة من جمل طويلة بسيطة التركيب متوالية الفقرات ثم ينتهي بالآيات الطويلة المركبة . (ومنها) ما تقدمه هذه

الدراسة من كسب لفقه اللغة الذي تدرس فيه تراكيب الكلام واختلافها باختلاف العصور وعقليات الأمم . ولا بد هنا أن تلفت نظر الباحث ظاهرة غريبة ذلك أن الجمل الطويلة المركبة في القرآن قد تطول حتى تبلغ أحياناً مقدار صفحة من كتاب ، وتركب أجزاءها في تركيب مرسوم محكم مترابط لا يقبل الفصل ولا التقسيم ولا التجزئة ، لتعبر عن فكرة متعددة الجوانب كثيرة العناصر ، بين جوانبها هذه صلات وبين عناصرها روابط . هذا النوع من الجمل لا نجد له نظيراً في ثل اللغة العربية قبل عصر القرآن بل ولا في عصر القرآن نفسه فلا نجد مثله في رسائل النبي ﷺ ولا في رسائل الخلفاء والصحابة وخطبهم ولا في عصر بني أمية ، ولا فكاد نجد أمثال هذه التراكيب إلا في عصور متأخرة من عصور العربية ، وهي العصور التي ارتقى فيها الفكر وبلغ درجة عالية من القدرة على التركيب بين المفاهيم والعناصر ، وهذه من خصائص القرآن الميزة التي تقسح المجال للتأمل والتفكير وتجعل القرآن نسيجاً وحده في تاريخ التراث العربي ، وتجعله خارجاً عن مراحل التطور وعوامله .

وهناك أخيراً فائدة فنية لدراسة أنواع الجمل وأساليب التركيب وألوان الصيغ فهي منبع خصب للجمال الفني سواء فيما تقدمه من ألوان منوية أم من موسيقى توارف الفكرة وتعاون معها بتوافق وانسجام . ونحب أن نختتم بحثنا هذا بمرض موجز للجانب الموسيقي من النظم القرآني .

النغمة والموسيقى :

يشعر قارئ القرآن شعوراً طبيعياً بدافع قوي يدفعه إلى ترتيبه ترتيباً صوتياً له نغماته في كل كلمة من كلماته بل في تتابع حروفه ، وحلاوة النغمة في الكتاب العزيز تتخلل الآية في جميع أجزاءها وحروفها ، ولا تقتصر على

الوقوف عند الفاصلة في آخر الآية التي تقابل السجع ، وإليك بعض خصائص هذه الموسيقى القرآنية :

١ - فقد تكون ضرباً من الإثارة وأداة للتنبيه والمفاجأة ، وخاصة في العهد السكي الأول حين كان العربي سادراً في غلوائه غير مستعد للاصغاء إلى الدعوة الجديدة ، ومن أمثلة ذلك مقدمة سورة الحاقة :

الحاقّة . ما الحاقّة ؟ وما أدراك ما الحاقّة ؟

وكذلك : القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟

ثلاث موجات متعاقبة تكبر وتتسع متصاعدة في طولها ومدودها . وتنصف كل واحدة منها بالشدة والمد في وسطها ويتعدد ذلك ويتكاثر في الثانية والثالثة .

ويتناسب ذلك مع هول الموضوع الذي هو (يوم القيامة) ومع هذه الاستفهامات المتوالية المشوقة لمعرفة الجواب .

٢ - وقد تكون تصويراً صوتياً موازياً ومقارناً للتصوير التخييري وذلك في مثل مقدمة سورة العاديات ، فهي وصف للخيل التي تعدو في غارة صباحية حتى تصل إلى هدفها ، فاستمع إلى هذه الفقرات المتقطعة تقطع مسير الخيل المتساوية في أجزائها :

والعاديات ضبحا . فالوريات قدحا . فالغيرات صبحا . فأثرن به نغما . فوسطن به جمعا .

الآيات الثلاث الأولى قصيرة سريعة متساوية في الطول وفي الوزن والنغمة وتتألف كل واحدة منها من الكلمة الأولى المشتعلة على مدّين والثانية لا مد إلا في آخرها ، وفي كل منها تصوير لارتفاع الخيل ثم هبوطها واصطدامها بالأرض ، وتأتي الآيتان الأخيرتان لتصورا بانعدام المدّ فيها وتوالي الحركات سرعة جري الخيل وتتابع حركاتها حتى تصل إلى هدفها (فوسطن به جمعا) .

٣ - والهم في النغات القرآنية تناسبها مع الموضوع والفكرة شدة ولينا
وسرعة وبطلاً .

فإذا كان الموضوع حديثاً عن يوم القيامة وهولها وتماقب أحداثها قصرت
الآيات وكثرت فيها الحروف ذات الشدة والصليل وقلت المدود أو فقدت
كقوله تعالى :

« فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر .
يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » (سورة القيامة)
وإذا كان الكلام دعاء جاءت المدود التي تكسب النغمة هدوءاً وطولاً
وتصور التأمل العميق ونداء المستغيث كقوله تعالى :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من
تدخل النار فقد أخزيت وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي
للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا
وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة
إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران ١٩١) .

واستمع إلى قول من استحق بعد الحساب دخول النار إذ يعبر عن
حسرتة وبتأوه :

« وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابي . ولم أدر
ما حسايي . يا ليتها كانت الفاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » .
ثم انظر كيف تنغير النغمة وتأتي حروف الواو لتصور دفعه إلى جهنم
دفعاً ثم كيف تطول الآية والنغمة في آخرها حين تلتف حوله سلسلة طويلة
من سلاسل جهنم :

« خذوه فقلوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون
ذراعاً فاسلكوه . » الحاقة ،

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

٤ - تنوع نغمات الآيات طولاً ووزناً وفاصلة (قافية) :
فقد تماثل وتساوى الآيتان مثل قوله تعالى « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا
حسابهم » .

وقد يكون التوازن مع اختلاف الفاصلة كقوله تعالى :
« آتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .
وكقوله : « غارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » (الفاشية)
وقد تتوالى الآيات كموجات متساوية متتابعة كقوله تعالى :
« في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود » .
وقوله : « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال
سيرت . وإذا . . . » (التكوين) .

وقد تتصاعد الموجات وتتسع وتطول في تتابعها كقوله تعالى :
« والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » .
« الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » .
وقد تتنوع الموجات طولاً وقصراً وتتفق فاصلة (قافية) وتختلف
فيألف من مجموعها قطعة رابعة فاستمع إلى قوله تعالى :
« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور .
والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع .
ماله من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيرا . فويل
يومئذ للكافرين » .

٥ - والنظم القرآني بالجملة نظم يبدو فيه الجمال الموسيقي أو حلاوة النعمة وليست القضية أبداً قضية نثر مسجوع ، إذ شتان بين السجع والموسيقى ، فالموسيقى القرآن داخلية تتخلل الكلام كله ، وتنظم جميع أجزائه ، كلماته وحروفه ، مع مراعاة التناسب بين نوع النعمة وصفاتها ، والفكرة أو الموضوع أو المشهد الذي تعبر عنه الآيات . واقراً إذا شئت لتشعر نفسك بهذه الموسيقى الداخلية أي جزء من الكتاب الكريم ، إقرأ إذا شئت هذه الآيات : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تور وازرة وزر أخرى وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا . » (الإسراء)

ولو قرأت حتى آيات التصريح والأحكام لوجدتها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية ، ولعل جمال النعمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة إلى صياغة خاصة في الكلام ، ولورجعت إلى الآيات التي استشهدنا بها آنفاً في طرائق التركيب لوجدت صدق هذه الملاحظة .

ولعل الباحثين في اللغة والمشتغلين بالأدب وفنونه وأساليبه يتوسعون ويتمقنون كل في اختصاصه في دراسة النظم القرآني ليقدموا للأجيال القادمة ما يمكنهم من تذوق لغة القرآن وفنه ، وما يجعل صلتهم بالعربية أعمق وشعورهم بجعلها أدق وأرهف ، وليؤدوا لكتاب الانسانية الخالد بعض حقه .

محمد المبارك

